الرقم التسلسلي المعياري الدولي: 2788-8037
المزيد عن رواق عربي وقواعد تقديم الأبحاث للنشر
https://rowaq.cihrs.org/submissions/?lang=en

الافتتاحية: المستقبل المباشر لحركات الجهاد: إزدهار أم إنحسار؟!

محمد السيد سعيد

الإشارة المرجعية لهذا المقال: سعيد، محمد السيد (2008) *الافتتاحية: المستقبل المباشر لحركات الجهاد: إزدهار أم إنحسار؟!*. رواق عربي، 12 (3)، 5-18.

إيضاح
هذا المقال يجوز استخدامه لأغراض البحث والتدريس والتعلم بشرط الإشارة المرجعية إليه. يبذل محررو رواق عربي أقصى جهدهم من أجل التأكد من دقة كل المعلومات الواردة في الدورية. غير أن المحررين وكذلك مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان لا يتحملون أي مسؤولية ولا يقدمون أي ضمانات من أي نوع فيما يخص دقة أو كمال أو مناسبة المحتوى المنشور لأي غرض. وأي آراء يعرضها محتوى هذا المقال هي آراء تخص كاتبيه، وليست بالضرورة آراء محرري رواق عربي أو مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان.

حقوق النشر
هذا المصنف منشور برخصة المشاع الإبداعي نَسب المُصنَّف 4.0.

افتتاحية

المستقبل المباشر لحركات لجهاد:
ازدهار أم انحسار؟!

مقدمة:

رغم بعض العلامات المضادة يبدو لي الاتجاه العام واضحا للغاية: الإرهاب باسم الإسلام يتراجع بصورة مؤكدة سياسيا وعسكريا، فيما تبدو التربة الثقافية أقل وضوحا. ولهذا لا يمكن استنتاج أن الإرهاب باسم الإسلام انتهى للأبد. فعلى المدى الوسيط والطويل لا يزال من الممكن أن تنبعث حركات جهادية أو إرهابية معادية للغرب وربما للعالم وقد تكون أشد شراسة من حركات السلفية الجهادية وغيرها والتى روعت العالم الإسلامى أساسا ثم العالم الغربى بعد ذلك خلال السنوات الأخيرة من الألفية الثانية والسنوات الأولى من الألفية الحالية.

ونسعى هنا لأن نلفت النظر للأوجاع والشكاوى التى يشعر بها العالم العربى والإسلامى والتى دفعت جزءا من شبابه لطريق الإرهاب وقد تدفعه لاحقا لهذا الطريق. ونناقش هنا بالطبع طبيعة هذه الأسباب أو الدوافع وكيفية التعامل معها من جانب المجتمعات العربية والإسلامية ومن جانب النظام الدولى أيضا.

أولا: علامات النهاية

العلامات المضادة والتى تنبئ باستمرارية الحركات الجهادية أو الإرهابية لا زالت بالطبع كثيرة. فخلال الشهر الأخير من ٢٠٠٧ تمكنت تنظيمات إرهابية من القيام بعمليتين كبيرتين فى قلب العاصمة الجزائرية بعد شهور من الهدوء. ثم كررت هذه العمليات بنهاية الأسبوع الأول من يناير الحالى. وقد تتوالى ضرباتها خلال الأسابيع التالية سواء فى العاصمة أو حيثما تنشر معظم قواتها فى المناطق الجبلية من البلاد.

ولو ثبت صحة الادعاء الذى أطلقه بعض الخبراء الباكستانيين، مثل مصباح الله عبد الباقى، حققت الجماعات الإسلامية المتطرفة فى باكستان أكبر نجاحاتها باغتيال السيدة بنظير بوتو. وبينما أنكر تنظيم القاعدة مسئوليته عن هذه العملية الإرهابية الأشد قذارة فان عشرات من التنظيمات الإسلامية تنتشر وتستلهم وتتجاوز أيديولوجيا القاعدة وطالبان.

وفى بعض مناطق البلاد قد لا يمكن وقف انتشار مثل هذه الحركات والتنظيمات كالفطر وخاصة تلك القريبة من الحدود مع أفغانستان والحدود مع الهند وحيث ينتشر الفقر بصورة مخيفة. وتؤكد باكستان نفسها كأحد أكثر المواقع المواتية لانتشار التنظيمات المتطرفة والإرهابية.

وخلال ٢٠٠٧ تمكنت تنظيمات ذات صلة بالقاعدة من القيام بعمليات صغيرة ضد الأجانب فى المملكة السعودية واليمن والمغرب والسودان. أما أهم العلامات المضادة فهى ما يقال عن استعادة قدرات تنظيم القاعدة فى أفغانستان خلال العامين الأخيرين. وخلال عام ٢٠٠٧ عاد السيد أسامة بن لادن فى محاولة للإيحاء بالثقة فى النفس للإدلاء بتصريحات علنية ومذاعة، وخاصة من محطة الجزيرة، بعد أن ظل مختفيا لأكثر من عامين متصلين.

وخلال الأسابيع القليلة الأخيرة أذاع أيمن الظواهرى، الرجل الثانى، وربما يكون الأمير الفعلى الراهن للتنظيم، رغبته فى الإجابة عن أسئلة المهتمين فى البلاد العربية والإسلامية على شبكة الانترنت. وتؤكد بعض المصادر الصحفية أنه بدأ يتلقى بالفعل آلافا من الرسائل من مختلف البلاد العربية والإسلامية بما فيها مصر.

وبوجه عام، فإن صعود طالبان من جديد فى أفغانستان مهد الطريق لإعادة بروز القاعدة باعتبارها التنظيم العربى الحليف والذى يعمل على نطاق عالمى.

ويعتقد كذلك أن تنظيم الجماعة الإسلامية والذى يتمتع بالنفوذ فى منطقة القبائل فى باكستان قد ضاعف من نشاطه وقوته وصار يعمل بوضوح للحصول على مزايا سياسية داخل منظومة الحكم فى هذا البلد.

النكسات والخط النزولى:

ثمة من يقول لنا إذن أن الحركات الجهادية المتطرفة تعزز قوتها فعلا وتحرص على تأكيد هذا المعنى بالحاح وخاصة عبر شبكة الانترنت وخارجها. ولكن هذه العلامات لا تكاد تخفى الاتجاه العام وهو تراجع قدرات هذه المنظمات بل ووقوع نكسات كبيرة جدا لأهمها وخاصة تلك المرتبطة بتنظيم القاعدة.

إن أهم النكسات التى شهدتها التنظيمات الجهادية المتطرفة فى عام ٢٠٠٧ وقعت بدون شك فى العراق والصومال. لقد توقف فجأة الخط البيانى الصاعد للعمليات العسكرية والإرهابية لتنظيم القاعدة فى بلاد الرافدين وبدأ فى الهبوط السريع. وكان "النجاح" الهائل الذى حققته عمليات أو إعلانات هذا التنظيم منذ الاحتلال الأمريكى للعراق حتى نحو منتصف ٢٠٠٧ يدفع للاعتقاد بأنه تنظيم المقاومة الرئيس والذى قد يتمكن من حسم الصراع حول العراق لصالحه إذا ما انسحبت القوات الأمريكية المحتلة والقوات الحليفة لها.

وخلال النصف الثانى من ٢٠٠٧ بدت نكسة التنظيم مؤكدة. إذ تلقى ضربات كبيرة من القبائل السنية واضطر لسحب قواته من بعض المناطق القبلية فى الوسط. وبدأ نوع من العلاقات الثأرية يسود بين التنظيم والزعماء العشائريين الذين ذهبوا إلى حد تفضيل العمل مع قوات الاحتلال عن تحمل الجرائم اليومية البشعة لهذا التنظيم.

ومن ناحية أخرى، انخفضت بشدة عمليات التفجير العشوائى والاستهدافى التى يقوم بها التنظيم أو التى اشتهر بها وخاصة فى مواجهة المساجد والحسينيات والمواقع الشيعية خلال نفس الفترة. وقد يسعى التنظيم لاستعادة الرعب المرتبط باسمه، وهو ما حدث فعلا خلال الأسابيع القليلة الماضية. ولكن هذه المحاولات ذاتها تشى بالضعف أكثر من القوة الخارقة التى كانت.

أما فى بقية البلاد العربية فالتنظيمات الجهادية وعلى رأسها تلك التى ترتبط ماديا أو رمزيا بالقاعدة تتراجع بسرعة.

فباستثناء اليمن وقع سحق لهذه الحركات فى عدد من الدول العربية. ففى

السعودية يكاد التنظيم الإرهابى المعادى للأسرة الحاكمة يكون قد صفى فعليا والأرجح أن أجهزة الدولة السعودية قد بدأت أيضا فى التخلى عن العناصر التى شجعت هروبها للعراق جزئيا من أجل التخلص منها وجزئيا من أجل اقلاق الهيمنة الإيرانية على العراق. وبوجه عام، يبدو أن الأجهزة باتت تتمتع بسيطرة أقوى على الوحش الإرهابى الذى غذته لفترة ليست قصيرة وأنها باتت إما قادرة على سحق المعارض منها أو تتبيعه وترويضه لمصلحتها.

وفى المغرب العربى، سحب البساط بصورة حاسمة من تحت أقدام التنظيمات الأشد تطرفا. والواقع أن الجماعة السلفية المقاتلة فى ليبيا سحقت منذ منتصف التسعينات. وهذا هو ما وقع أيضا لتنظيم الجهاد فى مصر منذ عام ١٩٩٧. أما فى الجزائر، فإن غالبية هذه التنظيمات قد تصالحت تباعا مع النظام خلال الأعوام الأولى من الألفية الجديدة وفقا لقانون الوئام الوطنى.

أما المنظمة السلفية للدعوة والقتال، فقد بدأت تظهر ضعفا أشد بنقل عملياتها من الغابات إلى المدن. أى أن ما يبدو أكثر تأثيرا من الناحية الدعائية هو فى الواقع تعبير عن اشتداد صعوبة خوض الحرب المفتوحة المستمرة مع الجيش الجزائرى منذ بداية التسعينات.

ولا يمكن بالطبع مقارنة قوة وشراسة الحركة الجهادية فى الجزائر مع أى بلد عربى آخر. وهى لا زالت تحتفظ بكثير من عوامل القوة فى هذا البلد المنكوب. ولكن بوجه عام، فإن الحركة السياسية مع ضعفها الشديد ورغم استمرار الفشل فى الانتقال الديموقراطى تتجاوز جذريا هذه الحركات تاركة إياها على الهامش وبدون تأثير يذكر على أى قطاع كبير ومهم من المجتمع المدنى أو السياسى.

والواقع، أنه يمكننا القول بأن هذه الحركات فقدت قوتها السياسية تماما تقريبا ولم تعد عاملا مؤثرا فى سياسات الأكثرية الساحقة من البلاد العربية الإسلامية التى كانت تنشط فيها بالمقارنة بالتيارات الرئيسة للحركة الإسلامية والتى تأخذ باستراتيجية العمل السياسى والجماهيرى والدعوى.

وقد اعترفت هى ذاتها بهذه الحقيقة وكانت أكثر هذه الاعترافات فتكا بمستقبل العمل الإرهابى هى "مراجعات" الجهاد فى مصر خلال ٢٠٠٧. وقد حظت هذه المراجعات والتى أذاع أهمها المرشد الفكرى لتنظيم الجهاد الدكتور سيد إمام بنقاش واسع للغاية. ولم تعلن سوى أقلية من الجهاديين التاريخيين رفضها لهذه المراجعات.

والواقع أن حركة المراجعات كانت قوية منذ فترة طويلة وبدأتها علنا الجماعة الإسلامية فى مصر وهى بدون أدنى شك كانت التنظيم الأقوى والأكثر انتشارا والمسئول الأهم عن عمليات الإرهاب داخل مصر نفسها خلال الفترة ١٩٩١-١٩٩٧. لقد اكتشف عدد كبير ممن كانوا وقتها شبابا غضا أن التفسيرات الإرهابية للإسلام مرفوضة من الغالبية الساحقة من المسلمين.

ولكن الأهم من المراجعات الفقهية هو اكتشاف عقم العمليات الإرهابية من الناحيتين العسكرية والسياسية.

فالعمليات الإرهابية التى قامت بها تنظيمات تنسب نفسها للإسلام متخبطة لا تصنع أى معنى منسجم ولا تدفع لأى تأثير عسكرى محدد وهى فوق ذلك تلقى استنكار الغالبية الساحقة من السكان. ومقابل عمليات أكثرها متفرق ولا قيمة له من الناحيتين العسكرية والسياسية تدفع التنظيمات الجهادية ثمنا كبيرا للغاية يتمثل فى أعداد كبيرة من القتلى والمعتقلين والمعاقين بسبب المواجهات العسكرية والاعتقالات والتعذيب.

ونتيجة لهذا التقييم، فإن غالبية الأقطار العربية والإسلامية لم تشهد عمليات إرهابية تذكر فى العام الماضى. بل وكادت العمليات العالمية لتنظيمات متطرفة تنتسب للقاعدة أو غيرها أن تختفى بدورها تماما.

تجفيف المنابع:

وينسب الأمريكيون الفضل فى هذا الخط النزولى للإرهاب "الإسلامى" لأنفسهم. ولا شك أن بعض التدابير كانت مؤثرة فعلا وبصورة خاصة التدابير الهادفة لتجفيف المنابع المالية للتنظيمات الجهادية بل وللتنظيمات الإسلامية عموما التى يشك الأمريكيون أن لها علاقة بالإرهاب أو بالمقاومة.

ومع ذلك فالأدق هو أن نستنتج العكس تماما. فالسياسات الأمريكية المهينة والظالمة فى المنطقة هى ما يدفع لاستمرار هذه التنظيمات، أما الأسباب الحقيقية للخط النزولى فيعود إلى هذه التنظيمات نفسها. إن حركة المراجعات تشكل بعدا مهما فى هذا الخط، ولكن هناك اعتبارات أخرى كثيرة.

بعض هذه الاعتبارات موضوعية وتعكس الهامشية المتزايدة للتنظيمات الجهادية فى المجتمعات العربية والإسلامية الكبيرة على الأقل. ويبدو أن التخبط الشديد الذى ميز عمليات القاعدة فى العراق قد استنفدت نسبة ضخمة من المقاتلين

فى عمليات انتحارية لا طائل من وراءها من الناحية العسكرية. والواقع أن الغالبية الساحقة من العمليات العسكرية للقاعدة فى العراق بالذات هى عمليات إرهابية قذرة تستهدف إرعاب المدنيين وقتلهم عشوائيا دون تحقيق أى هدف يذكر على أى مستوى.

كما أن تشديد الرقابة على حركة الكوادر الجهادية عبر الحدود السورية والسعودية وبعض دول الخليج الأخرى قد "جففت" فعليا منابع التجنيد وهو ما يظهر فى الاعتماد المتزايد على النساء فى تنفيذ عمليات انتحارية فى العراق لا تقل قذارة وافتقارا للمعنى مما سبقها. وفيما يبدو فان الخلاف بين الكوادر العربية والعراقية حول استراتيجية العمل ضد القوات الأمريكية كان له دور أيضا. فالقاعديون العراقيون يريدون فعلا دفع الأمريكيين للانسحاب، بينما يستهدف المقاتلون العرب الآخرون مزيدا من التورط والانغماس الأمريكى فى العراق بهدف استنزاف الولايات المتحدة هناك لأطول فترة ممكنة. ويبدو أن الجفاف فى عرض المقاتلين أدى لانتصار التيار الأخير.

وحتى فى أفغانستان، فإن صعود طالبان ليس ضمانا كافيا لازدهار القاعدة. فأولا يُحمّل قطاع كبير من طالبان قيادات القاعدة والمقاتلين العرب عموما مسئولية خسارتهم للسلطة بعد الاحتلال الأمريكى كرد فعل لأحداث ١١ سبتمبر. ومن ناحية ثانية، رغم عودة طالبان للصعود إلا أنها ليست فى وضع مشابه لما كانت عليه قبل خسارة السلطة ولا فى أى وقت سابق منذ نشأتها. إنها تعانى من ضعف لا يقل خطورة عن ضعف قوات الناتو هناك ولأسباب مختلفة بالطبع.

ويعنى ذلك أن طالبان لم تعد تحتمل ولا تسمح بمنح القاعدة تلك الحرية الكاملة فى العمل كما كان الحال قبل عام ٢٠٠١. وبوجه عام، فإنه رغم استمرار كثير من الإعجاب بالقاعدة بين الشباب المتطرف فى بعض الدول العربية والإسلامية لا يبدو أن ثمة تدفق إضافي من هؤلاء الشباب على أفغانسان يماثل على أى نحو ما كانت تتمتع به حتى ٢٠٠١.

بل إن تدفق الشباب المتطرف على العراق نفسها بدأ يضمحل ويقترب من الصفر. وبينما يعتمد القاعديون على التجنيد من بين الشباب العراقى السنى المتطرف فان الفيض الكبير الذى تدفق عليهم فى البداية قد انتهى عمليا الآن وحتى إشعار آخر.

والواقع، أننا نلحظ أيضا مراجعة وإعادة هيكلة لاستراتيجية التنظيمات

الجهادية وعلى رأسها القاعدة. ويقول الدكتور عبد الخالق عبد الله استاذ العلوم السياسية بالإمارات، إن التنظيم يتخلى عن العمل العالمى لصالح العمل المحلى. وينازع خبراء آخرون مثل مصطفى العانى هذا التقدير ويؤكدون أن بعض العمليات المحلية مقصودة فى الحقيقة لأسباب عالمية. وأرى شخصيا أن المراجعة الاستراتيجية أشد عمقا وشدة.

وبوجه عام، يبدو أن التنظيم قد خفض عملياته العالمية والمحلية معا من أجل التركيز على العراق أى أن التركيز الجغرافى هو ما يشغل بال القاعدة الآن لكى يحصلوا على "قاعدة- أو قلعة" أو منصة انطلاق حرة وهى استراتيجية معروفة تاريخيا وكان اليسار يسميها حتى وقت قريب استراتيجية المناطق المحررة. ويبدو أن العراق صارت حجر الزاوية فى الاستراتيجية العالمية للقاعدة. ولكن حتى هناك فإن ثمة مراجعة وإن ليست مؤكدة للاستراتيجية السياسية والعسكرية بعد سلسلة النكسات التى ألمت بالتنظيم في بلاد العراق.

ومن ناحية ثالثة، فإن القاعدة تأخذ حاليا بمنظور زمنى أطول بكثير ولا يبدو أن التنظيم متعجل فى تحقيق انتصارات تكتيكية على حساب ضمانات النصر على المدى الطويل. وفى هذا السياق يبدو أنه كان يقوم بعملية إعادة تنظيم لقواه البشرية. إذ يبدو أنه يتجه للتخلى تماما عن عملياته العشوائية فى معظم البلاد العربية مقابل التركيز على الجزائر والعراق وباكستان وأفغانستان.

من الإرهاب للسياسة:

ومع ذلك لا يبدو أن الخط النزولى لعمليات وقدرات التنظيمات الجهادية المتطرفة سوف يتوقف فى الأمد المباشر. ويعود هذا التقدير إلى شدة الخلل بين القدرات العسكرية الكبيرة من ناحية والقدرات السياسية والفكرية الضعيفة والمختلة من ناحية ثانية.

ونتوقع أن يزداد الميل للتركيز الاستراتيجى الذى كان مفقودا تماما فى عمليات القاعدة خلال السنوات القليلة المقبلة وذلك فى سياق عام من هبوط القدرات. ولا يستبعد هذا التقدير بالطبع إمكانية أو احتمال تحقيق انتصارات تكتيكية زاعقة وذات قيمة إعلامية كبيرة. كما أن انتشار التطرف والعنف بين الأجيال الشابة فى محيط واسع للغاية من العالم الإسلامى يجعل استراتيجية التركيز صعبة للغاية من الناحية الإجرائية.

ولكن حتى هذا الانتشار لا يخفى الاتجاه العام للحركة الإسلامية فى العالم العربى والإسلامى. الميل الإرهابى سيكون قصير العمر لقاء الثبات النسبى طويل المدى للحركات ذات الطبيعة السياسية.

وقد نصل إلى هذا الاستنتاج نفسه لو ناقشنا الأسباب والدوافع الأعمق لهذا الميل الإرهابى الذى اجتاح العالم العربى، وبالذات مصر والسعودية والسودان والجزائر خلال ربع القرن الأخير. فعلى المستوى الداخلى، كان هذا الميل الإرهابى تعبيرا عن تصدعات كبيرة فى بنية المجتمعات العربية بسبب الطابع المفاجىء للانتقال للرأسمالية والعولمة.

إن الافتقار للمعنى وللأمان تصاحب مع تمكين كبير لعناصر متعلمة ومتمتعة بمهارات وقابلة للتدريب على مهارات العصر بما فيها مهارات الحرب والإرهاب. وتبدى الافتقار للمعنى فى النهاية الفاشلة والسريعة للنظم الشعبوية الوطنية التى طرحت أطرا لاستيعاب شباب المجتمع فى تجربة للتعبئة السياسية أوسع مدى مما توفر لها فى أى فترة من تاريخها.

إن ثنائية المهانة الوطنية والتصدع الاجتماعى الناشئ عن التحول لاقتصاد السوق هو الوسيط أو هو القابلة للمشروع الدينى بوجه عام والمتطرف بوجه خاص. فى هذه الثنائية نشهد تصدعا اجتماعيا عميقا للغاية مع شعور عام بالمهانة الوطنية مما ينتج تدميرا لنظام المعانى الذى استقر فى البلاد العربية والإسلامية فى سياق النضال من أجل الاستقلال الوطنى أو منذ عشرينات القرن العشرين.

ولذلك، فإن المشروع الإرهابى هو وليد بلاد بعينها وتحديدا مصر والجزائر والعراق وبدرجة أقل سوريا. ذلك أن فشل المشروع الناصرى وهزيمته فى عام ١٩٦٧ كان البداية، ثم تحول النظام من الناصرية إلى الساداتية ومن العداء للاستعمار إلى الارتباط به والمصالحة مع إسرائيل، ومن ثم كانت البداية لاجتياح التطرف للأجيال الشابة وخاصة فى المناطق الريفية الأفقر وبالذات الصعيد.

إن إعلان الإفلاس الوطنى للنظام السياسى وقيام رأس النظام بزيارة إسرائيل عام ١٩٧٧ وتوقيع اتفاقية كامب ديفيد كانت البداية للانتشار الوبائى للحركة الجهادية فى مصر. وخلال أعوام قليلة للغاية بين ١٩٧٧ و١٩٨٤ كانت غالبية الشباب قد تبنت جزئيا أو كليا دعايات التنظيمات المتطرفة التى كانت هامشية ومتحالفة مع النظام حتى ذلك الوقت.

ولا يختلف الأمر كثيرا فى الجزائر، فقد انتشر التطرف كالنار فى الهشيم

بعد وفاة الرئيس بومدين. وفيما بين مظاهرات الخبز عام ١٩٨٨ ونهاية التجربة الديموقراطية الأولى فى يناير ١٩٩٢ كانت غالبية كبيرة من الشباب تتحول إلى التطرف والعنف الدينى.

أما فى العراق، فإن العامل الحاسم كان تطبيق نظام الحظر الاقتصادى بالغ القسوة والمهانة. وكان نظام صدام يفقد جائبيته الأيديولوجية بسرعة خلال عقد التسعينات بسبب أخطاءه وهزائمة المتتالية. وبدا التطرف الإسلامى مغريا بشدة، خاصة فى وجه خطر صعود التطرف الطائفى الشيعى فى الجنوب خلال الفترة ذاتها.

فقد اجتاحت أيديولوجيا التطرف الشباب الشيعي منذ القمع الوحشى لثورة مارس/آذار عام ١٩٩١. أما على الجانب السني، فإن سرعة اجتياح التطرف للأجيال الشابة تعاظمت بعد الغزو الأمريكى للعراق إلى حد أن غالبية الناس لم تنتبه لما وقع أصلا وأوقعهم فى اختلاط ذهنى عميق حتى لم يعودوا قادرين على التعرف على واقع بلادهم الذى انفلت عياره تماما بعد الاحتلال.

وبوجه عام، نستطيع أن نؤكد أن جانبا كبيرا للغاية من موجة التطرف الدينى التى اجتاحت العالم العربى والإسلامى منذ نهاية عقد السبعينات تعود أولا وقبل كل شىء إلى مجال العلاقة المضطربة بين العرب والعالم وبصورة خاصة بين العرب والغرب. والإرهاب هو تعبير عن هذا الاضطراب فى العلاقة مع النظام الدولى والقوى المتنفذه فيه. ولهذه العلاقة المضطربة مستويات مختلفة من العمق:

أول هذه المستويات وأكثرها بروزا على الإطلاق هو الشعور الحاد بالظلم القومى والدينى بسبب استمرار إنكار الحقوق الأساسية للشعب الفلسطينى والتحيز الغربى وبالذات الأمريكى الكامل لإسرائيل. وفضلا عما يشكله هذا التحيز من ظلم فإنه صار بصورة متزايدة مهينا من الناحية الثقافية والدينية. إذ صار يعلن عن هذا التحيز بمصطلحات ثقافية ودينية. فيتم تصوير إسرائيل وكأنها امتداد للعالم الغربى أو المسيحى من خلال التركيز على مصطلحات مثل الحضارة المسيحية اليهودية أو ما يماثلها.

وفى الولايات المتحدة بالذات حيث تتولى الحركات الأصولية الحكم من خلال شخصية مثل الرئيس جورج بوش الابن فإن الخطاب السائد يبرر التحيز ويدفع لمزيد منه باسم الأصولية المسيحية. وبذلك يصير من الطبيعى أن يتواصل رد

الفعل العربى والإسلامى المصاغ بصورة أصولية وبنفس شدة التطرف.

وبوجه عام، يمكن القول إن موجة التطرف الدينى فى العالم العربى والإسلامى هى رد فعل لا على التحيز الغربى والأمريكى بالذات لإسرائيل بل وأيضا على ما يبدو من عنف وغرور وتطرف متزايد فى إسرائيل وفى المشروع التوسعى الصهيونى ذاته. وخلال أكثر من ربع قرن من ملاحقة إسرائيل وأمريكا من جانب النظم العربية المحافظة والتابعة من أجل سلام يعترف بشىء من العدالة وبحقوق الشعب الفلسطينى لم تسفر عن شىء، الأمر الذى يدفع للجوء للدين باعتباره أكثر البنيات الفكرية والوجدانية تمايزا مع الآخر الدينى: أى مع الأصولية المسيحية والصهيونية معا.

جدلية الفعل ورد الفعل:

الأصولية الإسلامية تبدو هنا أكثر كرد فعل. ولكنها أيضا فعل أصيل يبحث عن صيغة ثقافية أكثر أصالة وأكثر تواصلا مع الموروث الثقافى والذهنى للعالم العربى والإسلامى عما بدأ يغوص فيه من أشكال وأساليب مستوردة من الغرب الرأسمالى المتقدم. ويشكل هذا الاضطراب المستوى الثانى من العمق فى دوافع التطرف والعنف.

العنف فى هذه الحالة يبدو وكأنه محاولة لإثبات "تفوق التراث أو المنقول الفقهى الإسلامى على كافة النظم الثقافية والدينية الأخرى. والواقع أن هذا المستوى بالذات هو التعبير الأنقى عن العدوانية الثقافية والبداوة الفكرية لتيار الجهاد أو الإرهاب الإسلامى. فمسئولية النقل هنا تقع أساسا على أكتاف الطبقات والنخب المحلية السائدة وليس الغرب أو الشرق بذاته. فلا يمكن لأية قوة مهما بلغت أن تفرض على أى مجتمع إجاباته على أسئلة الحياة والثقافة والوجود قام هو بإبداعها. كما لا يمكن أن تنقذه من ميله الكسول للتقليد الأعمى. ومع ذلك فثمة مسئولية غير مباشرة وهى تنشأ عن دعم النظم التابعة ورفض أي نظم اقتصادية أخرى غير الرأسمالية، مما يعزز التبعية الثقافية أيضا وان بصورة غير مباشرة.

ومن ناحية ثالثة، فإن علاقة التبعية دخلت إلى مرحلة العولمة فى نفس اللحظة التى تجتاح فيها العالم الغربى بل والعالم كله سياسات رأسمالية متشددة فجرت بشدة القضايا الاجتماعية الصعبة فى العالم الثالث ككل بما فيه العالم العربى

والإسلامى. ويواجه الفقراء والمهمشون فى عشرات من الدول العربية والإسلامية محنا ممتدة ومريرة بين البطالة الممتدة والحرمان من أبسط ضمانات الحياة وخدماتها من تعليم وصحة وثقافة بل ومن أبسط ضرورات الحيز الملائم للحياة الانسانية بسبب الانحشار فى عشوائيات مريعة ومتوسعة بسرعة.

ويتم ذلك كله فى نفس الوقت الذى تتفجر فيه وتتركز ثروات كبيرة لدى أعداد محدودة من الناس أو من أطلق عليهم رجال أعمال دون أن يضيفوا الكثير إلى القدرات الإنتاجية لبلادهم. وترتبط عملية التمايز الاجتماعى المتسارعة بتمزقات خطيرة فى البنية الاجتماعية حتى فى العمق الريفى الذى تميز بالاستقرار تقليديا. وفقدت القوى القائدة فى الريف بل وفى المجتمع ككل قدرتها على السيطرة على هذه التصدعات وخاصة عندما عبرت عن نفسها من خلال رفض قطاعات شابة متطرفة للإرث السياسى والثقافى المهيمن والسائد والفاشل أيضا.

ووسط ذلك كله تعيش المجتمعات القديمة ذات القاعدة الزراعية والتكوين الثقافى الأعقد والأقدم فى العالم العربى وخاصة مصر وسوريا والعراق والجزائر والمغرب حالة اضطراب ذهنية وثقافية شديدة. وتتميز هذه الحالة بأن الطبقات الجديدة والتى تكاد تحتكر الثروة والسلطة تفرض التحول للرأسمالية بدون بنيات أصيلة فكريا وثقافيا وتكاد تقتلع الضمانات الموروثة سواء فى البنى الاجتماعية والثقافية أو فى التجارب السياسية التقدمية والشعبوية والوطنية بعد الاستقلال.

وتحكم هذه الطبقات بلادها بالحديد والنار وتحصل على كل شىء لنفسها دون أن تطرح أية أيديولوجية أو ثقافة أو فكر مبهر وقادر على استيعاب أو ترشيد أو توجيه التجربة والممارسة الاجتماعية والسياسية. ولأن هذه الطبقات مرتبطة بالغرب مصلحيا فهى تستزرع فى بلادها نماذج وقوالب مستعارة على المستوى الاقتصادى والاجتماعى وتقبل علاقات ظالمة على المستوى السياسى طالما انها لا تمس امتيازاتها.

كان التطرف فى جوانب أساسية منه احتجاجا على هذه الظروف كلها.. احتجاج على الغرب والشروط الظالمة التى يفرض بها هيمنته بما فى ذلك الوجود الإسرائيلى صاحب المشروع التوسعى على الشعب الفلسطينى وهو ما يشعر الشعوب العربية كافة بالظلم والمهانة.

وهو احتجاج عنيف على الظلم الاجتماعى والفوارق الهائلة والمتسعة بين

الطبقات والناتجة عن سوء توزيع الثروة وعلاقات القوة المختلة بين مختلف القوى الاجتماعية. . وهذا الاحتجاج حقيقى وأصيل حتى لو تعبر عنه الحركات الأصولية المتشددة والتى اتجهت للإرهاب فى مرحلة ما من تطورها.

وهو احتجاج على العقم الثقافى للطبقات السائدة وفشلها فى التحرر من البنى الذهنية للتبعية وفى إنتاج تجربة ثقافية أصيلة أو خلاقة ومن ثم الركون لاستيراد كل الهياكل الغربية وما يرتبط بها من ثقافة. وهى احتجاج على صعوبات وآلام عملية الانتقال للرأسمالية ولعلاقات التبعية الأشد فى عصر العولمة قبل أن تتم تسوية الخلافات والتناقضات العميقة فى العلاقة بين العرب والغرب أو بين المسلمين والعالم.

ومع ذلك، فإن النتيجة الواقعية التى تعزز استنتاجنا بهبوط الإرهاب هى أن التطرف والعنف لم ينتجا إجابة أفضل عما هو قائم فى الواقع. بل على النقيض تماما. فان كانت الطبقات المهيمنة قد أنتجت أساليب حياة متصدعة وحافلة بالتناقضات فهى على الأقل متلامسة مع المعايير الحديثة للعلاقات الاجتماعية بينما لا تعد الحركات المتطرفة بشىء أفضل من أسلوب حياة بدائى للغاية وينتمى موضوعيا وفكريا للعصور الوسطى المبكرة كما نشهدها فى جبال تورا بورا أو فى مناطق الحدود بين باكستان وأفغانستان وبدرجة أقل كثيرا فى بلد مثل المملكة العربية السعودية.

ومن ناحية ثانية، فإن هذه التنظيمات المتطرفة تبدو وكأنها تقدم إجابة أسوأ بكثير على صعيد آخر وهى حالة حرب دائمة بين المسلمين والعالم. إن نموذج الجهاد الأبدى ينتج بالضرورة أسلوب حياة تورا بورا، لأنه لا مجال للحرب غير المتكافئة غير هذا الأسلوب. ومن ناحية ثالثة، فإن الحياة فى ظل الحداثة، حتى لو كانت رأسمالية ومستعارة من الغرب، تفتح إمكانيات أفضل بكثير لحل التناقضات والسيطرة على التصدعات الاجتماعية الناشئة عن عمليات انتقال صعبة بالفعل، على الأقل بالمقارنة بالإجابة شبه الانتحارية التى تقدمها هذه التنظيمات المتشددة.

وأخيرا فإن تجربة التيارات الرئيسية للأصولية الإسلامية والتى تمارس المعارضة السلمية من منطلقات إسلامية تبدو بكل تأكيد أكثر قدرة على اجتذاب التأييد عن التنظيمات المتطرفة والإرهابية. تؤدى هذه العوامل مجتمعة إلى تركيز الحركة الإسلامية على التجذر من خلال العمل السياسى المنظم وليس المواجهات

العسكرية.

وربما يعكس التجذر السياسى للحركات الإسلامية عداء أكثر عمقا للغرب وللولايات المتحدة مما تكنه لها القاعدة والتنظيمات الجهادية الأخرى. ولكن الفارق يظل كبيراً. فالحركات المؤثرة فعلا على المجتمعات السياسية العربية مثل حركة الإخوان المسلمين هى حركات تعمل بالسياسة وتقيس الأفعال وردود الأفعال بمنطق السياسة وليس العنف العشوائى.

خاتمة:

لا شك أن التصدعات والتناقضات التى أنتجت الموجة الراهنة من العنف الدينى باقية فى المجتمعات العربية الإسلامية وخاصة مصر والعراق وسوريا والجزائر والسودان سوف تبقى لفترة طويلة فى المستقبل. ونستنتج من ذلك أن العنف الإرهابى والعشوائى ليس ظاهرة عابرة تماما. وهى بهذا المعنى قد تشبه الموجات الكبرى التاريخية من الإرهاب مثل حركة الخوارج فى القرن الأول الهجرى أو حركة الحشاشين فى القرن الهجرى الخامس والسادس.

ومن الطريف أن الموجة الإرهابية الأخيرة والتى أرعبت العالم الإسلامى لأكثر من قرن كامل انتهت بصورة إرادية وبمجرد أن اتخذت زعامة شابة جديدة قرار وقف العنف والانتقال من العنف إلى الاهتمام بشئون الحياة مع تأكيد الحق فى الاستمتاع بالحياة. ومن هذا المنظور نثق أن موجة الإرهاب والتطرف التى عشناها فى ربع القرن الأخير فى طريقها للاضمحلال وربما الزوال.

ونعترف بأن هذه النبوءة فيها شىء من الميكانيكية المعيبة فى المعرفة الاجتماعية. فهى تبدو وكأنها شخصت نشوء الإرهاب كحتمية وشخصت أزمته وزواله كحتمية أخرى. ولا نريد أن نعتذر عن هذا التمثيل الميكانيكى للأمر ولكننا لا نريد أن نترك الانطباع بالحتمية دون مراجعة.

فالواقع أن بلادا عربية وإسلامية كانت تمر بنفس الظروف أو ظروفا مشابهة إلى حد ما ولكنها لم تتعرض لنفس محنة التطرف التى مرت بها مصر والجزائر والسودان والعراق مؤخرا على سبيل المثال. ولكن هذه النتيجة عبرت فى الواقع عن نجاح أكبر فى ماليزيا وإندونيسيا بل وفى المغرب وتونس فى التعامل مع مركب الأزمة الذى أنتج هذه الموجة وإن بطرق مختلفة بالطبع.

وبوجه عام، فإن ثقتنا بزوال هذه الموجة الإرهابية ليست بدون حدود. فلعلنا

شهدنا مثلا بأن الأصولية والتشدد الدينى قد يستمر لفترة أطول من الإرهاب وذلك لأنها قد تتخذ صيغة سياسية وعبر التسكين فى حركات وتنظيمات سياسية أصولية كبيرة مثل حركة الأخوان المسلمين. كما أن ثمة إمكانية لإنتاج موجة أخرى أو تالية من التشدد والإرهاب المبرر بذرائع دينية فى المستقبل المتوسط والبعيد.

ويرتبط ذلك باستمرار الفشل فى حل التصدعات والمشكلات الكبيرة المرتبطة بالانتقال للرأسمالية فضلا عن بقاء الظلم القومى والغرور الإسرائيلى والأصولية فى الولايات المتحدة. فهذه الظروف تصب زيتا على النار وقد تواصل إشعال التطرف والعنف فى كثير من البلاد العربية والإسلامية.

بل ولا يمكن استبعاد أن تتواصل الميول التعصبية والكارهة للحداثة والرافضة للتعايش مع العالم. ومثلما أضافت العراق بعد الاحتلال أعدادا مذهلة من المتطرفين يمكن لأى انهيار فى أى بلد عربى أو إسلامى كبير أن يضيف أعدادا مشابهة.

ويعنى ذلك أن على القيادات المدنية والسياسية المعتدلة أن تعمل بنشاط وخيال على حل جملة المشاكل والتصدعات المحلية وفى العلاقة مع الغرب بالذات من أجل وضع نهاية للعوامل التى تشعل الرغبة فى التطرف وفى الثأر والانتقام أو العنف عموما.

ويكفى أن يتوفر قدر معقول من حسن الإدارة والرغبة الحقيقية فى الإصلاح حتى تبدأ عملية تجفيف منابع العنف فى الثقافة والواقع فى العمل. وبالنهاية فإننا مع توفر هذا الحد الأدنى من الرغبة فى الإصلاح نثق فى الحكم الذى توصلنا له هنا عموما: الإرهاب الإسلامى فى طريقه فعلا للهبوط والاضمحلال.

د. محمد السيد سعيد